في تحديد الدلالة وهو دور قد يبدو، في أهميته هذه، متناقضًا مع اعتباره فضلةً عنها بالنظر إلى التركيب فقط [1].

وقد كان الفاعل في بعض الآيات التي ورد فيها لفظ القول، سببًا في الإشكال كما أنه سيُسهم بعد ذلك في إزالته أو على الأقل في محاولات إزالته.

فخروج فاعل القول في كثير من المواضع القرآنية عن الفاعل الطبيعي له، أي عن المخلوق الميسَّر للنطق بالقول، وهو الإنسان، هذا الخروج أثار دهشةً صيغت في أسئلة تباينت بحسب نوع الفاعل المسند إليه القول في كل موضع:

فعندما أسند الفعل إلى الله كانت الأسئلة من قبيل: كيف يقول؟ وكيف يفهم قوله؟

وشابها كثير من الحرج إذ دخلت منطقة شائكة، هي منطقة العقيدة، فهل القول على المجاز أم على الحقيقة، وما طبيعته أو ماهيته إن كان على الحقيقة؟ وهي طبيعة تختلف بالتأكيد عن طبيعة القول البشري. (كما تملي عقيدة المسلمين عليهم أن يعتقدوا).

وهنا تدخل المفعول ليكون عنصراً فاعلاً في فهم الدلالة، بهدف الوصول إلى مدلول محدد للقول، عندما يسند إلى الله تعالى.

ولا نعني بالمفعول هنا «مقول القول»، بل المخاطب بالقول، وهو ما يكون ـ من جهة التركيب ـ أحيانًا متوصلاً إليه باللام وأحيانًا مخاطبًا أو منادى بصريح النداء مثل قوله: ﴿قلنا يا نار كوني برداً وسلامًا﴾[2].

وقد تنوع هذا المخاطب وأثر تنوعه في فهم المفسرين لطبيعة الخطاب.

فعندما كان المخاطب نبيًا قالوا هذا وحي، وعندما كان حيوانًا أو جماداً قالوا هذا إلهام أو تسخير، وعندما كان المخاطب ملائكة قالوا مثل ذلك، وهناك خطاب الله تعالى لموسى عليه السلام، الذي اختص بنوع من الخطاب نص عليه القرآن نصا خاصا ضيق كثيراً من حدود الخلاف حول دلالته: ﴿وكلم الله موسى تكليمًا﴾.

---

(١) وهذه الملاحظة ليست مقصورة على المفاعيل فقط دون «الفضلات» النحوية الأخرى، بل إن الجار والمجرور مثلاً مما اعتبر ثانويا في الجملة العربية، قد يغيران الدلالة تمامًا، ويؤديان إلى تعددها ومن أمثال ذلك:

- ذهب محمَّد. ذهب محمَّد إلى المدرسة. ذهب محمَّد إلى رأي جديد. وأشهر منه: رغب عن، رغب في، رغب إلى، وكذلك: بلغ مراده وبلغ لازمًا. ومثل هذا كثير جدا في ألفاظ اللغة.

(٢) الأنبياء: ٦٩.